

ثورة الحسين (ع) وفاء للإنسانية



ثورة الحسين (ع) ثورة إنسان كامل في إهابه معنى الرشد، وحقيقة الوعي، وروح الإيمان، وسرّ العلو المطلق، فتشكّل في حياته دليلاً أميناً لطلاب الحقّ، وبعد مماته أمثلة رائعة حازت شرف الأسوة في خطّ مشروعٍ نقلاً وعقلاً، وبقي مَن واجهه رأساً في حربة الظلم والعدو والإثم، ذات نتاج الفساد والخديعة والشر. سيبقى الحسين الثائر يعلم الناس من خلال ثورته كيف يموتون، لأنّ الموت فنٌ كالحياة، فمن لم يختَر الشهادة النبيلة فسيختاره الموت الوضيع، والشهادة قيمة طغراء في صفحة الولاء بعد الثناء. علّم الحسين مَن بعده كيف تُعتنق المبادئ، وكيف تُحرس، وكيف يُقدّس الإيمان، وكيف يُدافع عنه، وكيف يكون الموت من أجل العقيدة، وكيف يحيا كريماً من تبنّاها عريّة عن الخَطَل، مرعية الصلة بالخالق الأعظم. ثار الحسين ضد الظلم، وأي إنسانية أعظم من أن تثور ضد الجور والحيث، وتأتي بالعدل عنواناً صادفاً لمجتمع الأفراد وأفراد المجتمع؟ نظّم الحسين عاشوراء الزمان وكربلاء المكان في سلك الشهادة، ووضعها قلادة على جيد التاريخ، تاريخ الإصلاح، فتحوّلت بعده كلّ ذكرى للزمن إلى عاشوراء، وأضحت كلّ مناسبة للمكان كربلاء. مات الحسين، ولكنّ موته لم يكن - أبداً - هموداً ولا رقوداً، بل هو خروج الحركة عن قطبها لتحلّ منتشرة في نوازل كُثر، ففي روح كلّ مصلح لمعة من روحه، وفي ضمير كلّ مجاهد قبسات من عطائه. دمّ الحسين رؤواء أنعش الأرض، فأنبثت طُهرًا وطيباً استمرّ! وبقي، وسيف المناوئين الطغاة أُعيد على رقابهم شؤماً منفّراً ولعنة قصمت الظهر والذكر، ورضي الله عن عقيلة بني هاشم، زينب الفضل، إذ خاطبت هؤلاء: "كديك، واسع سعيك، وناصب عداوتك، فوا! لا تمحو ذكرنا، ولا تمتيت وحيّنا، والويل لك يوم ينادي المنادي: (ألا لعنة الله على الظالمين)". الحسين في حياته، وبعد استشهاده، إنسان عظيم تهواه الصدور، وشخصية الكبيرة

من الناس هي السدرة التي ينتهي التاريخ إليها مفاخراً بحقّ. ولم لا يكون الحسين كذلك، وهو من انبثق من عظمة النبوة محمّداً (ص) فكان السبط الحبيب، ومن عظمة الرجولة عليّ (ع) فكان الابن الأريب، ومن عظمة الفضيلة فاطمة (عليها السلام) فكان البضة التي تعني في الصلة والوصال أكثر مما يعنيه القريب. هذه بعض من ملامح لم تكن البلاغة فيها على حساب الإبلاغ، بل لقد أصابها القصور أحياناً، فلم تعطّر الحقيقة حقّها، وأين الكلمة - مهما توشّحت - من السرّ؟ وأين العبارة - مهما زُخرت - من القبس العلوي الإلهي؟ وهذه لمحات من حكاية الثائر الأشمّ، وما اللّمحات من تلك الحكاية إلا كقطرة ندى من وابل طيب، به السماء تفخر والأرض تزهر.

مَن هو الحسين؟ ومَن - هنا - لا تعني السؤال بقدر ما تعني تذكيري ومن معي من بني الإنسان بالوفاء، وليس المقام هنا سرد حياة مفصلة، أو عرض ترجمة في سياق تعريفي مطوّل، وإنّما أردنا إعادة عرض بعض اللقطات النورانية عن هذا العظيم الأنور، وإذ تتبدى في إنسانية هي بالتمام والكمال، وإذ تسفر فعظيمة

هي بكلّ المعايير الناطقة بلغة العقل الصائب، والصواب الحكيم العاقل، وإذ تبرز فالملتقى عندها للاتساء والافتداء. ولنبدأ المشوار مع لقطة يخرجها جدّ الحسين (ع) بألوان الحب وأضواء العطاء: "حسين مني، وأنا من حسين. أحبّ الله من أحبّ حسيناً". ويقول الحبيب الأعظم (ص) مرة لابنته السيدة البتول (عليها السلام)، وقد سمع حسيناً يبكي: "ألم تعلمي أنّ بكاءه يؤذيني".

وتتابع اللقطة اللؤلؤية العظمى ليقول الجد (ص) عن الحسين (ع): "من أحبّ الحسن والحسين فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني". ويقول (ص): "الحسن والحسين ريحانتي من الدنيا". ويقول (ص): "الحسن والحسين سيّد شباب أهل الجنة". ويقول (ص) لعليّ وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام): "أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم" وتُقلّ اللقطة هذه على توريثٍ عطريّ عبقّ تأخذ عنها لقطات أخر، أخرجها وارثون، وارثوا غير الدرهم والدينار عن الأسياد، وإنما ميراثهم عنهم العلم الصحيح، وهو الحظ الوافر، بل الأوفر. ومن هذه اللقطات ما كان ابن عمر، يوم كان جالساً في ظل الكعبة، فرأى الحسين (ع) مقبلاً فقال: "هذا أحبّ أهل الأرض اليوم إلى أهل السماء". وما كان من تأثّب شبّ عن طوق طغمة آل أبي سفيان، إذ قال: "هذه الخلافة حبل الله، وإنّ جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحقّ بها منه، عليّ بن أبي طالب (ع)، وركب بكم ما تعلمون، حتى أتته منيّه، فصار في قبره رهيناً بذنوبه، ثم قلّد أبي الأمر، وكان غير أهل له، ونازع ابن بنت رسول الله (ص)، فقصف عمره وانبت عقبه، وصار في قبره رهيناً بذنوبه".

للإنسان هويةٌ ثابتةٌ لسمات، واضحة الصفات، جلية الأبعاد، لا تخفى على ذي لبٍّ منها خافية، وهي - أي الهوية - كالسماء الصافية في يوم صاف مظهر. إذا ران عليها ما يمحو عنها هذه السمات، وتلك الصفات، وهاتيك الأبعاد، حسبتها - والحسبان نظر دقيق - شرسة مشينة، ليس لها عند البهائم من نظير، وخلتها انحطاطاً نوعياً يتعالى عليها بجدارة التدني الوظيفي للحيوان، وصدق الله إذ يقول: (إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) (الفرقان/ 44). وسمات الإنسان وصفاته وأبعاده، التي تكون هويته الثابتة هي: العدل والفضيلة والعلم والمسؤولية. وبعد قراءة مستفيضة لثورة الحسين، أنّ الحسين (ع) كان من جمع في إهابه الطاهر وركابه الماهر العدل على أشده، والفضيلة على أحسنها، والعلم على أوثقه، والمسؤولية على أتمها، فغدا بهذا الطرف الخيّر الإنسان في صراعه مع الآخرين، الذين أكدوا بأفعالهم وبأقوالهم بعداً عدياً عن العدل، ورفضاً شهوانياً للفضيلة، ونزفة ملؤها الغرور الحاق من العلم، وانعتافاً من المسؤولية الإنسانية، ليُستبدل بها جهر بالفساد وإعلان بالسوء والشر. وها نحن أولاء نذكر بعض ما جاء على لسان سيد الشهداء الإمام الحسين (ع) يحكي سبب ثورته ودافع قيامه: "هيهات منا الذلة، يا أباي الله ورسوله والمؤمنون، وحجّور طابت، وبطون طهرت، وأنوفٌ حمية، ونفوس أبية. ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به، والباطل لا يُتناهى عنه؟! فلا أرى الموت إلا سعادةً، والحياة مع الظالمين إلا برماً" الحق دافعه، والقضاء على الظالم وراء خروجه، ومحو الباطل واستئصاله همه الذي سكن صدره إذ ثار. ويتابع الإمام حكاية سرّ الثورة فيقول: "إنّنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا ختم. ويزيد رجلٌ فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس المحرّمة، ومعلنٌ بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله".

نعم، ومثّل الحسين (ع) في لُحمة الحق ومظهر دين الله، لا يبايع يزيد في لحمة الشيطان، ومظهر الباطل، والإمام المؤهل للمبايعة هو من وصفه الإمام الحسين (ع) بقوله: "لعمري. ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والأخذ بالقسط، والدائن بالحق"، والحابس نفسه على ذات الله. ولعمري أنا يا إمام، إنّ ما ذكرت من صفات الإمام لا يعدوك إلى سواك، ولا يتجاوزك إلى غيرك في عصرك، فأنت العامل بالحق، وأنت الأخذ بالقسط، وأنت الدائن بالحق، وأنت الحابس نفسك على ذات الله، أو لست القائل: "إنّي لم أخرج بـطراً أو أشراً، وإنّما خرجت أطلب الإصلاح في أمتي جدي محمد (ص)". رعيت يا حسين الأُمة فاصلحت وفوّمت مسارها، بعد أن كاد يعوجّج - على أيدي هواة الإعوجاج - عن الجادة الصائبة، فجزاك الله خير ما يجزي مصلحاً عن أُمّته، يا قائد الإصلاح في سياق الإخلاص. يقول الإمام (ع) في رسالته إلى معاوية: "وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأُمة من ولايتك عليها، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأُمّة محمد (ص) أفضل من أن أجاهرك. لقد قلت فيما قلت: إني إن أنكرتُك تنكرني، وإن أكدتُك تكدني. فكذني ما بدا لك، فإني أرجو ألا يضرنني كيدك، وألا يكون على أحد أضرّ منه على نفسك، لأنّك قد ركبت جهلك، وتحرّضت على نقض عهدك، ولعمري ما وفين بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق، فقتلتهم من غير أن يكونوا وقتلوا وقتلوا، ولم تفعل ذلك به إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا. فأبشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أنّ الله تعالى كتاباً لا يغيّر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس بناسٍ لأخذك بالظنّة، وقتلك أولياءه على التّهم، ونفيلك إياهم من دورهم إلى دار الغربة، وأخذك للناس ببيعة ابنك الغلام الحدث...". وأخيراً: سيدي أبا عبد الله: في ذكرى الاستشهاد الشريف النبيل، نرفع مقامك تحية الحب والوفاء والولاء والثناء، تحية الأمل في أن نُشمل بشفاعتك يوم اللقاء الأكبر، تحية الرجاء في أن نُسقى من كف جدّك (ص) على كفك شربة لا ظمأ بعدها أبداً. سلامٌ عليك يوم ولدت، ويوم خرجت، ويوم تُرث، ويوم استشهدت، ويوم تُبعث شهيداً سيّداً في رياض الخلود، وسلامٌ عليكم جميعاً آل البيت ورحمةٌ من الله وبركاته.

